

العنوان:	مناهج البحث عند ابن حزم الاندلسي
المؤلف الرئيسي:	الزعبي، انور خالد قسيم
مؤلفين آخرين:	خليفات، سحبان محمود(مشرف)
التاريخ الميلادي:	1994
موقع:	عمان
الصفحات:	1 - 101
رقم MD:	549786
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	الجامعة الاردنية
الكلية:	كلية الدراسات العليا
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	الفلسفة الاسلامية، طرق البحث، ابن حزم الاندلسي، علي بن احمد، ت 456هـ
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/549786

للاستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب أسلوب الاستشهاد المطلوب:

أسلوب APA

الزعبي، انور خالد قسيم، و خليفات، سحبان محمود. (1994). مناهج البحث عند ابن حزم
الاندلسي (رسالة ماجستير غير منشورة). الجامعة الاردنية، عمان. مسترجع من
<http://search.mandumah.com/Record/549786>

أسلوب MLA

الزعبي، انور خالد قسيم، و سحبان محمود خليفات. "مناهج البحث عند ابن حزم الاندلسي"
رسالة ماجستير. الجامعة الاردنية، عمان، 1994. مسترجع من
<http://search.mandumah.com/Record/549786>

الفصل الاول

ابن حزم والبحث عن اليقين

- مقدمة .

أ- سيرة ابن حزم .

ب- البحث عن اليقين .

مقدمة

عنيت بعض الدراسات الفلسفية المعاصرة بأعمال كثير من المفكرين الاسلاميين القدامى ، واستفاد بعضها من التقدم الحديث الذي حصل في المناهج ، فجاءت المحصلة - على وجه الإجمال - إغناءً لمعرفتنا بالتراث ، وبالمذاهب والمدارس التي كانت رائجة في تلك العصور .

وقد شملت الدراسات المعاصرة جوانب مختلفة من أعمال أولئك المفكرين : علمية ، وأدبية ، وفقهية ، وصوفية ، وغير ذلك . لا سيما حين تتناول البارزين من أمثال الكندي ، وابن سينا ، وابن حزم ، والغزالي ، وابن رشد ، وابن تيمية ، الخ ، مما أتاح لنا الوقوف على كثير من الرؤى والتوجهات المهمة عندهم ، وتتبع ملامح تطور الاتجاهات المذهبية .

وبطبيعة الحال ، فقد اعتمد الباحثون أول ما اعتمدوا ، على ما نشر من التراث ، ثم زادت العناية بتحقيق التراث والاعتماد في الدراسة على المؤلفات المحققة أساساً . وقد نهض بهذه الاعمال على خير وجه علماء أجلاء ، وجهوا الأنظار إلى ما يزخر التراث به من مناهج ، ونظريات ، وأفكار ، مما مهد الطريق أمام دارسي التراث اللاحقين لإنجاز دراسات أكثر دقة ومنهجية .

بيد أن تلك الدراسات ، مع ما قدمته من فوائد جليلة ، وما وجهته من نظرات ثاقبة ، وما استخرجته من نتائج طيبة ، لم تصل جميعاً - فيما أقدر - إلى القدر الكافي من الشمولية والعمق في المعالجة ، ذلك أن بعضها لم يصل إلى النتائج التي وصل إليها بدراسة عميقة لمنهجية المفكر موضوع الدراسة أو بعد الارتكان لدراسة مفردة لبلورة المنهج عنده ، وإنما جاءت تلك الدراسات على خلفية إنتقاء المواضيع وفقاً لتخصصاتها ، وبهذا لم تربط النتائج التي وصلت إليها بالأسس المنهجية التي يصدر عنها الفكر في آرائه . مما وسما بشيء من القصور وعدم الدقة .

ولنقف على أثر قلة العناية بالمنهج عند دراسة المفكر أو المذهب ، يكفي أن نذكر أن معظم الدراسات المعاصرة المتخصصة بفكر ابن حزم* - والتي تزيد عن عشرين دراسة - فضلاً عن دراسات سابقة اشارت إلى أبرز ملامحه في سياق عروضها التاريخية ، لم يعن

العناية الكافية بمنهج ابن حزم . مع أن معظمها أشار الى صدور فكر ابن حزم عن نسقية واحدة ، ولم تكلف أي من الدراسات الاكاديمية نفسها بتقديم هذه النسقية ، وتتبع تفرعاتها بشكل شامل ، مما جعل الفكر الحزمي عرضة لسوء الفهم . فالقدماء حين لم يفهموا منهجه رموه بالخروج عن جادة العلم ، فذهب ابن حيان الى أن ابن حزم متصور على الفنون لاسيما المنطق ؟ . وقال أبو بكر بن العربي عن الظاهريين إنهم « أمة سخيصة تسوّرت على مرتبة ليس لها ، وتكلمت بكلام لم تفهمه » ؟ . أما من حاولوا فهمه فلم يكن الإطراء وحده ليغني كبير غناء عن تتبعهم خطوات المنهج ، يقول الغزالي « وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً ألّفه أبو محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه » . وقال عز الدين بن عبد السلام « ما رأيت في كتب الاسلام مثل « المحلى » لابن حزم و « المغني » للشيخ الموفق . وذكره الشوكاني في معرض حديثه عن ابن تيمية فقال « أنا لا أعلم احداً بعد ابن حزم غيره (أي غير ابن تيمية) » .

أما المعاصرون فقد ذهب الدكتور عمر فروخ إلى أن في فكر ابن حزم شيئاً من التناقض « وأنه « لم يقصد أن ينشئ فلسفة عقلية » وأنه « جاء من غير أن يشعر بآراء فلسفية صحيحة » ؟؟ ، وذهب الدكتور سالم يفوت ، إلى أن « مشروعه الثقافي بكامله هو بلورة للمشروع الثقافي للدولة الأموية ، والذي هو مشروع تلعب فيه الاختيارات السياسية والايديولوجية دوراً أساسياً * » ؟ ، وإن ابن حزم « ألى على نفسه نقد أدلة المتكلمين والتصدي لكل ما من شأنه أن يدعم الاتجاه الفكري في الفقه والعقيدة للدولتين العباسية والفاطمية » ؟ . وفي المقابل رأى د . يفوت « أن ظاهريته كانت وراء اكبر ثورة من اكبر الثورات الفلسفية التي عرفها تاريخ الفلسفة في الاسلام » ؟ ورأى بروكلمان أنه كانت لظاهرية ابن حزم « آثار مستنهضة في وسط النحجر الذي استولى على الحياة الدينية في الاندلس » ، ورأى الدكتور عبد الحليم عويس أن ابن حزم « كان يهدف الى إقلاق العقل الاسلامي من سكونه وجموده وتحريكه في اتجاه الاجتهاد والدليل » .

* بالطبع ان من طمّوح ابن حزم وطمّوح أي مفكر غيره ، هو أن يجد قوة سياسية يدفعها الى ان تتبنى موقفه . بيد ان ذلك لا يعني انه أنتج هذا الموقف ليناسب تلك القوة او ان تلك القوة حملته على تشكيله ، فذلك امر في غاية الصعوبة ان ينطبق على الفكر الحزمي ، الجموح ، المتمرد على المصانعة والتقليد من أي نوع كان . فضلاً عن نسقيته البرهانية القائمة على منهجية متماسكة ايها تماسك - الباحث .

وهكذا تنازع الدارسون فكر ابن حزم ذلك التنازع المتولد عن الانطباعات في الغالب ، وعن أغراض حددت سلفاً ، مما يستدعي القيام بدراسة وافية لمنهجيته لبيان المسائل على وجوها .

واضح من التنازع السابق أنه ليس في وسعنا ان نبين محاسن أي فكرة أو مثالبها أو تحليل موقف ما بالارتكان إلى الانطباعات أو أنتقاء الغرض الخاص أو إجراء المقارنة المجردة بين الأفكار ، لهذا لا بد من تقييم يستلزم دراسة إنتاج أي فكر في ضوء منهجه ، بحيث تأتي المقارنة - أساساً - مقارنة منهجية ، لبيان مدى اتساق ما ينادي به المفكر مع منهجه . فمن العلوم أن صحة الأحكام في العلم تعتمد على سلامة المنهج . فإن وجد ما يعاب به الفكر فيجب تحديد مصدر هذا العيب ، أهو في المنهج ككل أم في خطوة منه أم في الآراء التي لا تتسق مع المنهج ؟ وإن وجد ما يشاد به فمن ذات الطريق يبرز .

بهذا تنبذ لنا قيمة تخصيص المنهج بدراسة وافية ، فهي تمكننا من الوقوف على جلية الأمر ، وتمهد لنا إجراء الدراسة المقارنة للأفكار ، سواء ضمن المذهب الواحد أم بين المذاهب المختلفة ، فمن اختلاف المقومات المنهجية وربما بسببها تنشأ الاختلافات .

لقد لمست ما تنطوي عليه مؤلفات بعض المفكرين الإسلاميين من مقومات منهجية ، ومن بين هؤلاء ابن حزم الاندلسي ، مما دفعني إلى تخصيص هذه الرسالة لدراسة منهجه ، لما يلقى ذلك من ضوء على فكره .

وليس من شك في أن ابن حزم قد استفاد أكثر مقومات منهجه من مفكرين آخرين ، يستوي في ذلك الأوائل منهم ، - والذين ربما كان أبرزهم تأثيراً في فكره الرواقيون وأرسطو - أو الأواخر - الذين ربما كان من أبرزهم النظام وداود الاصفهاني . بيد أن ابن حزم ربما يكون وحده من طبق المنهجية بعناية ، فقدم عملاً نقدياً من الدرجة الأولى للآراء السابقة عليه ، مما أتاح له فرصة أن يصوب في قواعد منهجه ، وأن يعدل فيها ، وأن يحذف ، وأن يضيف ما يراه أكثر صواباً .

أجل لقد صدر ابن حزم في أعماله عن منهجية مطبقة بدقة ، وتبدو هذه المنهجية واضحة لمن يرصدها . ومهمة هذا البحث أن يثبت هذه المنهجية ، ويبين أصولها وأسسها ، وأنها وراء كل توجه معرفي له ، وأنه من اللائق بعد الوقوف عليها ، ومن خلالها ، أن ننظر إلى ابن حزم على أنه من أبرز النقاد المنهجيين في العصور الوسطى كلها ، وأنه قد

استوعب المناهج والآراء السائدة حتى عصره ، وأسهم في إشادة مناهج لاتزال تعتبر حتى يومنا هذا من الميادين البكر مثل « التحليل الظاهري » و « التحليل اللغوي » ، وأنه أراد لهذه المناهج أن تكون أساس البناء الثقافي للأمة بدل تلك الدعاوى المتهافنة التي أطلقها كثير من الفقهاء ، والفلاسفة ، والمتصوفة . وهو لا يهدف من وراء هذا إلا إلى رفع شأن العلم ، والنهوض بالناس إرضاء لضميره وربه ، لكنه للأسف كان في واد والناس في واد آخر .

إن ما تسعى إليه هذه الدراسة هو كشف وبلورة وإشهار مناهج البحث التي استعملها ابن حزم في بناء ظاهريته ، وسوغها بها ، وتبعاً لذلك ، فقد عنيت هذه الدراسة بمسألتين محوريتين لا يمكن فهم فكر ابن حزم بدون معالجتهما ، وهما : العمل على تبيان ماهية ظاهرية ابن حزم وكشف خصوصيتها ، وهذا هو موضوع الباب الأول ... ومن ثم الوقوف على مناهج البحث التي استعملت في بنائها ، وهذا هو موضوع الباب الثاني .. وقد عالجت هذه الدراسة هاتين المسألتين عبر فصول عدّة عقدت لهما :

ففي الفصل الأول أبرزت هذه الدراسة منعطفات سيرة ابن حزم وبيّنت أنها لم تكن مستقلة عن توجهاته الفكرية ، سواء في مرحلة النشأة وطلب العلم ، أم في مرحلة الاشتغال بالسياسة ، أم في مرحلة الإنقطاع للعلم ونشره . وبيّنت ارتباطها جميعاً بنفسية ابن حزم ، وأوضحت أن أبرز ما في هذه النفسية تعاطفها للفقير وانشغالها به حتى ظفرت به على أسس منهجية صارمة ، بوسعها - في رأي ابن حزم - أن تميز بين الحق والباطل . إن هذا يؤكد استقلالية فكر ابن حزم عن أي مؤثرات خارجية بشكل مباشر ، لا سيما التأثيرات السياسية والأيدولوجية منها . إن ابن حزم - كما بينا في هذا الفصل - قد ارتكن بكل ثقته إلى نظرة نقدية فاحصة غابتها معرفية تثويرية تسعى إلى هدف عام هو الإصلاح في كل المجالات ، وقد أثمرت هذه النظرة بناء العقل على القطع .. ومن ثم بناء كل دعوى بما فيها الشرع على هذا القطع . فالعقول الذي كان سائداً قبل ابن حزم كان يحتاج لنظرة نقدية تقننه وتخلصه مما هو شغب - على حد تعبيره - فنهض ابن حزم بهذه المهمة لأنه كان يرى أن العقل هو الحجة على الدين .

أما في الفصل الثاني ، فقد اهتمت هذه الدراسة ببيان أصول ظاهرية ابن حزم .. ومدى اتفاقها واختلافها مع أصول غيره من المفكرين ، لا سيما أرسطو ، الذي اتهم ابن حزم بمخالفته بدون أن يفهم غرضه . في حين بينت هذه الدراسة وعي ابن حزم بموقفه وتخيره له عن قصد واضح محاولاً بذلك التوجه وجهة جديدة في النظرة الفلسفية التي

أسسها ، بتقنين دور العقل ، ورفض فكرة الجوهر ، والقول بالنظرة الإسمية ، ومن ثم استخلاص قاعدة تحليلية يرتكن إليها ، والمضي بعد ذلك إلى ما تسمح به من توجهات منهجية مسوغة . كل ذلك تبناه ابن حزم على أساس نقدي يقر بمحدودية المعرفة البشرية . لقد نتج عن هذا ما يمكن اعتباره توجهاً لفلسفة العلم .

أما في الفصل الثالث ، فقد بينت كيفية إقرار ابن حزم لمقدمات أولية ضرورية (قبلية) لا يتطرق إليها الشك تصلح أساساً مقبولاً لإشادة الحقائق . وأوضحت تسويفه لهذا الأمر عبر خطوات منهجية قوامها : التأمل العميق في مجرى الخبرة وتحليلها ، مما قاده إلى الإقرار بالاولئ الحسية والعقلية والاحتفاظ بها وتسميتها بموجبات العقول . ومن ثم تبينه للعقل على أنه عيان وتميز في بداية أمره ، ثم مفاضل بين الأشياء والأفعال . فكان هذا الفصل تنويعاً لظاهريته التي عنيت في الأساس بالاولئ ، عبر وصفها وتحليلها ، والنظر إليها نظرة وضعية ، مما أسبغ على فكره سمته الظاهرية . وهذه المنهجية تبرز للمرة الأولى باعتبارها محاولة من محاولات جعل الفلسفة علماً . وباعتبارها تطابق بين الظاهر والباطن تطابقاً تاماً . في حين تبقي الغيب ضمن مجاله المتجاوز للمعرفة البشرية . وبذلك أبرزت هذه الدراسة أصول ظاهريته ومرجعيتها على وجهها الصحيح .

أما في الفصل الرابع ، فقد اتجهت هذه الدراسة لاستخراج تجريبية ابن حزم المؤسسة على الإقرار بالاولئ ، وباعتبارها جزءاً من ظاهريته حيث بينت اعتماده على المشاهدات والتجارب في إنتاج مقدمات حقة متسقة مع الاولئ ، ثم وعيه بمشكلات الاستقراء والعلية وطبيعة فهمه العميق لها ، وتوظيفه لهذه المقدمات في بناء الأقيسة المنطقية الصحيحة، ورفض دعاوى السحر والمخرقة والشعوذة . إن ابن حزم - كما بينا في هذا الفصل - وضع حداً فاصلاً ما بين الاستقراء العلمي المضبوط وبين الاستقراء الظني مما ترتب عليه أن ينظر الى الطبيعة النظرة العلمية السليمة .

أما في الفصل الخامس ، فقد بينت فهم ابن حزم للخبر والتاريخ، واتباعه خطوات نقدية منهجية خلّص بها التاريخ مما علق به من أوهام ، ورجوعه في ذلك إلى ما قن من عقلانية في قبول الأخبار أو رفضها ، واستعماله لمنطق الجهات ، والمقارنة ، والإحصاء ، والتواتر ، وبينت أنها خطوات صحيحة في مجملها للنثبت من صادق الأخبار . كما بينت خصوصية فهم ابن حزم للمنقول الشرعي ، وأنه يعوّل في ذلك على التواتر ، ومن ثم المعجزة باعتبارها دليل صدق على صحة مضمون الشريعة . وقد وجهت النظر إلى هذا الدليل

باعتباره مكن قوة وضعف في أن واحد ، ففي حالة عدم ثبوت المعجزات ينهار المنقول كله عند ابن حزم من الناحية الإعتقادية، ويترتب عليه رفض ما يتجاوز المعقول مما جاء فيها .

كما بينت في هذا الفصل خطته في بناء التاريخ العام على القطع عبر مؤلفاته فيه ، وارتباط ذلك بنظرته المتطلعة إلى يقين لا ريب فيه، مما دفعه لإجراء الدراسات المقارنة الواسعة في الملل والأهواء والنحل ، ومن ثم محاولة اختصار بعض التاريخ بما يلائم أغراض الاستدلال ، وصياغته على شكل مقدمات تصلح للقياس عليها ، جنباً الى جنب مع المقدمات التجريبية والأوائل من قبلها .. توجهه في ذلك نظره المرجعية الى الوجود باعتباره نظاماً يتبدى بوجوه الأربعة : « الواقعي » و « التصوري » و « اللغوي » و « النصي » .

أما في الفصل السادس ، فقد بينت استعمال ابن حزم للتحليل اللغوي المنطقي ، على نطاق واسع ، في رد دعاوى الخصوم ، وأنه يستند في هذا الرد الى قاعدة التحليل عينها ، ليستفيد مما أنجزه سابقاً في فهم اللغة، وأنها موقوفة للتعبير عن معان ثابتة واحدة في كل اللغات ، وتتأسس على « المسميات » ذاتها (أي الأجسام وكميافاتها) لا على الأسماء ، أو على التسميات . ثم بينت تعريفه للمعنى .. ومن ثم كيفية التحقق من هذا المعنى بالرجوع الى المسميات ، مما يبرز ابن حزم واحداً من رواد تحليل اللغة والمنطق ، ويضعه في مقامه الصحيح باعتباره صاحب رؤية نقدية شاملة في المعرفة ، ليس عن طريق التحليل الظاهري التصوري فحسب .. ولكن عن طريق التحليل اللغوي المنطقي أيضاً . وقد بينت كيفية تطبيقه لهذا التحليل في رفض التأويل غير المنضبط ، والتعليل ، والقياس في اللغة .. ومن ثم كيفية إعمال تأويله الظاهري في النصوص الدينية ، الذي يعطي الأولوية لمقتضى المعنى الذي يعبر عن الوجود الجاري على سننه بالنظرة العلمية .

أما في الفصل السابع والآخر ، فقد بينت استعمال ابن حزم لمنهجيته العقلانية الظاهرية ، بكل أبعادها السابقة ، في عقلنة الشريعة . وكتوطئة لذلك ، حصره الشريعة بالقرآن والسنة الصحيحة (وهما عنده في مقام واحد) ، ومن ثم الإجماع (وهو إجماع الصحابة فقط) ، وحصره الإجتهد بالدليل الذي يأخذه من كل المقدمات التي اعتبرها حقة .

إن أخذ ابن حزم بالدليل فقط ورفضه كل الأصول الفقهاء الأخرى من رأي ، وقياس ، واستحسان ، وتقليد، وتأويل غير منضبط ، وغير ذلك من أصول معتمدة لدى مذاهب أخرى .. اعتبرها ابن حزم ظنية ، إنما كان يهدف إلى جعل الشريعة معقولة بشكل كاف

.. لان مخالفة العقل عنده يترتب عليها أخطر النتائج ، فمن أنكر عقله فقد أنكر الذي لولاه لم يعرف ربه وأنتج له ذلك تكذيب أي شيء .

إن إعمال المعقول الذي قننه ابن حزم في الشريعة ترتب عليه أن ينظر ابن حزم اليها على أنها تتضمن أقساماً ثلاث :

قسم يطابق المعقول مباشرة ولا يعارضه على ظاهر الأمر من غير دليل . وقسم آخر يطابق المعقول بعد تأويله بالدليل المنضبط بالنظرة الظاهرية . وقسم أخير أبقاه ابن حزم على الوقف لأنه من علم الغيب . بيد أن هذا القسم لا يعارض المعقول أو يناقضه ، وإن كان يتجاوز ما للعقل من قدرة .. فعمل العقل في مجال الظاهر فقط . وبالتالي ، فلا سبيل للعقل أن يفصل فيه ، وقبوله في هذه الحالة يتم اضطراراً إذ يرجع إلى قبول المعجزة كدليل صدق . هكذا كان ابن حزم وانياً لعقلانيته الظاهرية .. مما يضعه عملياً ، بخلاف غيره ، في موقف غير المتنكر لحقائق الحس والعقل ، و يجعل من عمله عملاً أكثر نفاذاً وعمقاً من غيره في هذا المجال ، إذ انه توجه توجه المستوثق المتيقن من مرجعية لا مجال لإنكارها أو الشك فيها ، ولم (يفرط) كما افترط البعض فزادوا في العقل ما ليس فيه ، ولم (يقصر) كما قصر البعض فأخرجوا من العقل ما فيه ...

لقد ترتب على هذا الانجاز الحزمي أنه لا يوجد سوى علم واحد يوصل اليه بمناهج صائبة ، وأن هذا العلم البشري ، في مجال الظاهر ، هو ذاته علم الله الأعلى لأن ، من علم الشيء على خلاف ما هو عليه فهو جاهل به . بيد أن علم الله تعالى أوسع وأشمل يحيط بكل شيء بما فيه عالم الغيب . ولله أن يمد به من يشاء وقت يشاء عن طريق الوحي .

أما الخاتمة فقد خلصت فيها الى أن النظرة الفلسفية عند ابن حزم مختلفة عن غيرها من النظرات الأخرى ، وغير نمطية ، وأنها تحليلية مقتصدة في تركيباتها ، مما سمح بتعميق مسارات التحليل عنده ، وبذلك مثلت ظاهريته ثورة على صعيد الفلسفة ، وعلى أكثر من صعيد .. وأن لها مصطلحاتها الخاصة ، التي ترافق في العادة كل عمل قصد به التجديد . وقد انتهيت الى بيان ما في ظاهرية ابن حزم من خروج على مألوف عصره ، وإن ظاهريته تمثل ثورة منهجية حقيقة في إطار العقلانية ، مما جعل عمله عملاً فريداً في العصور الوسطى كلها ، ويمثل نقلة بارزة ، تشبه الى حد ما النقلة من الفلسفة الحديثة الى

المعاصرة ، فهو ردة فعل قوية تجاه التركيبات والمذاهب التي لم تفحص أسسها

فحصاً كافياً .. فراحتم تقرر - بدون منهج معتمد - عوالم وعقول مفارقة بأساليب شغبية - كما يقول - مما دفعه للمناداة بالمنهجية الصارمة أساساً في بناء الاحكام وبناء المذاهب في الفلسفة والعلم والدين .

إن الاتجاه الظاهري في الفكر قد كان الاقل حظاً من العناية على الدوام في الثقافة العربية الإسلامية ، وأنه لم يلق الأهتمام الذي يبين أصوله وقواعده ليتبلور البلورة الكافية ، بحيث بقي طي الغفال والترك مما ترتب عليه سوء الفهم وقصور الاحاطة ، بالرغم من سهولته وبساطته .. فالفكر الظاهري يدعو ببساطة متناهية إلى أن يكون الظاهر ذاته هو الباطن ، ويعبر مفكرنا عن هذا بقوله ، « ما علمنا علماً ظاهراً غير باطن ولا علماً باطناً غير ظاهر ، بل كل علم متيقن فهو ظاهر الى من علمه وباطن في قلبه معاً ، وكل ظن يتيقن فليس علماً لا ظاهراً ولا باطناً » .

هذا الموقف الظاهري هو الذي اتسم فكر ابن حزم به فتبناه ، ووضع له أصوله وقواعده ، وواجه به كل الدعاوى الأخرى ، مستفيداً من كل الآراء التي سبقته في هذا المجال ، ومن مجمل الريادات التي أسهمت بنصيبها فيه ، فكان عمله بحق عملاً تأسيسياً لا ينازعه فيه أحد . بيد أن هذا الموقف ، للأسف ، لم يكتشف ويبلور ويشهر بكل أبعاده ، وإنما انتفع بأجزاء منه ، وأشيد بلامح فيه ، من قبل غالبية المفكرين ، اياً منهم على حدة ، وبدون أن يؤخذ بمجمله ليستفاد منه ويصار الى تطويره . ٤٣٩٧٣١

يمكن القول في الختام ، إن هذه الدراسة توافق في بعض ما جاء فيها دراسات سابقة عن ابن حزم ، وبعض الآراء هنا وهناك ، لكنها تختلف معها في تكييف مسائل كثيرة أثارها ابن حزم .. لان دراسة المنهج كانت غائبة في أثناء إعداد تلك الدراسات ، في حين تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها بلورت الفكر الحزمي عبر بلورة ظاهريته ، ومناهج البحث التي استعملت فيها ، مما سمح لها بتصحيح آراء خاطئة وإبراز آراء أكثر اصابة .

وبعد ، فقد أكثرت في هذا الدراسة من النصوص والشواهد - على وفرتها البالغة في مؤلفات ابن حزم - ولم أعمد الى إعادة صياغتها تحاشياً للظنون وسوء الفهم ، ومن أجل تقديم ما يعين على الإحاطة بالموضوع بدون تكلف مشقة الرجوع إلى المصادر ، الأمر الذي يمكن من الحكم على نتائج هذه الدراسة و منهجيتها بيسر .

أملأ بهذا أن اكون قد قدمت إسهاماً متواضعاً في إضاءة فكر ابن حزم الظاهري
وأراء مفكرين تأثر بهم أو تأثروا به ، سائلاً المولى ، عز وجل، الهداية والتوفيق .

عمان في ١٩٩٤/٥/٣.

أنور الزعبي

١- سيوة ابن حزم:

ولد الإمام الحافظ أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم في قرطبة عام ٢٨٤هـ، (٢٠٩:١) في بيت عز وجاه، حيث كان والده من وزراء الدولة العائمية التي حكمت الأندلس باسم الخليفة الأموي 'هشام المؤيد'، في الفترة ما بين عام ٣٦٦هـ - ٣٩٩هـ.

تلقى ابن حزم تربيته الأولى على أيدي النساء كما روى هو عن نفسه، (١٦٦:١/٢) مثلما شقف تعليمه الأولي على يد مربيه 'أبي علي الفاسي' (٢٧٣:١/٢) وعدد من المدرسين والشيوخ من بينهم، 'ابن الجسور' و 'ابن الفرسي'، واكتسب آخر الأمر ثقافة مميزة في مختلف العلوم والمعارف ..

الحق زوال الدولة العائمية واستيلاء البربر على قرطبة عام ٤٠٠هـ، (٢١٠:٣) وتعاقب الفتن والاضطرابات في المدينة، أذى كبيراً بأسرة ابن حزم.. ومما زاد الأمر سوءاً: وفاة أخيه الأكبر بالطاعون، عام ٤٠١هـ، (٢٥٩:١/٢) ثم وفاة والده عام ٤٠٢هـ، (٢٥٢:١/٢) فزوجته، (٢٢٤:١/٢) ولما يبلغ ابن حزم العشرين من عمره .. وقد كتب يصف حاله جراء ذلك فقال:

« ما انتفعت بعيش، ولا فارقتني الإطراق والانغلاق مذ نقت طعم فراق الأوبة .. ولقد نغص تذكرني ما مضى كل عيش أستأنفه . وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء، ودفن الأسى بين أهل الدنيا» (١٢٥:١/٢) . هذه الظروف جعلت ابن حزم يتحمل - على صغر سنه - مسؤولية أسرته .. وقد اضطر - شأن كثير من الأسر القرطبية - للنزوح إلى 'المرية' عام ٤٠٤هـ بعد خمسة أعوام من المعاناة .. واستظل في هذه المدينة برعاية صاحبها 'خيران' الذي شارك بدور بارز في الأحداث التي تعرضت لها البلاد في تلك الفترة ..

ومع اتهام ابن حزم بالعمل على إحياء الدولة الأموية، عاد الأذى يحل بساحته من جديد، فاضطر لترك المرية متجهاً إلى 'حصن القصر' (٢٦١:١/٢) قبل انقضاء عام على وجوده فيها .. ثم إلى 'بلنسية' حيث استأنف نشاطه فاشتغل بالسياسة مشاركاً الأمويين محاولات استعادة سلطانهم ..

رافق ابن حزم، ولما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، حملة عبدالرحمن بن محمد للاستيلاء على قرطبة عام ٤٠٩هـ، متطلقين من بلنسية (٢٦٢-٢٦٣) إلا أن الحملة فشلت، مما عرّض ابن حزم للمساءلة والإغرام ثم السجن فالنفي.. (٢٦٤:١/٢)

عاد ابن حزم عام ٤١٤هـ لمرافقة عبد الرحمن بن هشام في محاولة جديدة للاستيلاء على قرطبة ، لكن المحاولة فشلت أيضا بعد شهر أو شهرين - عمل في خلالها ابن حزم وزيراً له - وبعد إخفاق الحملة تعرض ثانية للإغرام والسجن والنفي..

وبفشل محاولة الثالثة -رافق فيها ابن حزم 'المعتد بالله هشام' قبل عام ٤٢٢هـ ، وألحقت به أذى جديداً - توقفت محاولات الأمويين لاستعادة سلطانهم. ولم يعد ابن حزم بعدها إلى الاشتغال بالسياسة .. وقد وصف حاله في هذه الفترة فقال :

«إن ذهني متقلب ، وبالي مهتصر ، بما نحن فيه من نُبُو الديار ، والجلء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ... والتغريب في البلاد، وذهاب المال والجاه ومداغة الدهر، وانتظار الأقدار..» (٢١٠:١/٢) .

وهكذا تركت تلك الفترة من تاريخ الأندلس - والحافلة بالفتن والقلقل ، بالإضافة إلى التجارب الفاشلة المريعة - في نفس ابن حزم شعوراً عميقاً باليأس من الإصلاح عن طريق السياسة.. فأثر انتباذها والتوجه نحو العلم ، علّه يحقق عبر هذا الطريق ما ينشده من إصلاح مازالت نفسه عاقدة العزم عليه..

يقول صاعد الأندلسي : إن ابن حزم بعد أن هجر السياسة أقبل على قراءة العلوم ، وتقعيد الآثار والسنن، فعنى بعلم المنطق، وألف فيه كتاباً سماه 'التقريب لحد المنطق' ، (٩٩:٤) .

والحقيقة أن ابن حزم كان قد أَلَف في أواخر الفترة السالفة رسالته الشهيرة: 'طرق الحمامة' الحافلة بضروب النثر ، والشعر ، والحكايات في الحب، وبعض النظرات الفلسفية، التي تؤكد اشتغاله قبل هذا بالعلوم ، وتنم عن توجهات نقدية في الحقل المعرفي.. جاء كتاب 'التقريب' ليؤكدها ، ويوصلها. كما جاءت كتبه الأخرى فيما بعد - ك'الفصل' و'الإحكام' ورسائله العديدة .. لتعرض للتفاصيل ، والتطبيق في مختلف المجالات..

وإذا كان ابن حزم في توجهه الإصلاحى، عن طريق السياسة، قد وجد حزباً أموياً يساعد على تحقيق مسعاه.. فإن انشغاله بالإصلاح عن طريق التنوير أمر مختلف .. إذ لا بد له هاهنا من أن يشق طريقه ، معتمداً على قدرته الخاصة . لذلك، فقد انصرف إلى الاستزادة من المعارف، والمثابرة على التحصيل ؛ ليحصل ما لم يحصله أحد قبله في الأندلس:

من علوم الشريعة، (٩٩:٤) وغيرها -كما هو مشهور-، يساعده على هذا ، ما اجتمع له من الذكاء، وسرعة الحفظ ، وكرم النفس والتدين « (٣٠٩:١) .

وبطبيعة الحال فقد وفرت له حياة التنقل، والترحال ، التي عاشها- إبان اشتغاله بالسياسة - فرصة الالتقاء بالكثير من الشخصيات العلمية، والأدبية، والفلسفية، والدينية، وعقد المناظرات.. مما عمق تكوينه الثقافي ، وزاد في تجربته العملية الشيء الكثير..مما نجده مبعوثاً في مؤلفاته التي تربو على الأربعمائة مجلد - كما ذكر ولده "أبو الفضل" رافع (٩٩:٤) .

لكن التحصيل ، بدون تمحيص، لا يشكل تميزاً ، وتفرداً ، أو إبداعاً، فالمعارف المألوفة متاحة لطلابها، والحفظ متيسر لكثير من الناس. أما أن يمر ذلك بعملية نقدية صارمة، طلباً لليقين ، فأمر تفرد به ابن حزم في بلده ، وملاً عليه حياته، حتى إذا ما حصل عليه جاهد لإشهاره ونشره..

وهكذا جعلت الظروف التي مرت بها الأندلس ، والفتنة التي قامت ، والخلافات المذهبية التي انتشرت ، من مراجعة النفس ، والأفكار ضرورة لا بد منها..

كان ابن حزم في أول أمره مالكياً - بحكم الحال الذي وجد نفسه عليه في صباه- .. لكنه ما لبث أن اعتنق المذهب الشافعي لما فيه من اعتماد أكبر على التحليل، والبرهان .

غير أن هذا المذهب لم يحقق تطلعاته المنهجية، فانتهى به الأمر لأن يتبنى المذهب الظاهري فبعثه من مرقده ، ووضع أصوله وأسسـه ، وحلّق به إلى آفاق رحبة لم يعرفها من قبل.. وظل وفياً له حتى وفاته الأجل..

كان ابن حزم صريحاً ، شجاعاً في إشهار يقينه ، والمنافحة عنه ، مثلما كان مقداماً في مسعاه السياسي.. وكما أنه لم يتمكن- بسبب من استقامته البالغة - من فنون السياسة وأحاييلها، فإنه - وكما لاحظ معاصره ابن حيّان- لم يكن مترفقاً في نشر أفكاره ، أو مخادعاً في الترويج لها.. يقول ابن حيّان إن : «أكثر معايبه ، زعموا ، عند المنصف له، جهله بسياسة العلم ، التي هي أعوص من إيعابه» (٧٩:٥) .

دفعت هذه الروح ابن حزم إلى مهاجمة سياسيي عصره ، وفقهائه، فكان يرى فيهم الفساد كله ، وأنهم اشتغلوا بأمور تجاهلوا فيها مهامهم الأساسية، وانشغلوا بعمارة قصور يتركونها عما قريب ، وبجباية أموال ستكون سبباً في انقراض دولتهم (٤١:٣/٢) ، ثم

يقرر صراحة : « أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ، ورسوله ، وساع في الأرض بفساد » (١٧٣:٣/٢) .

كما يعرض بفقهاء عصره بقوله : « لا تغالطوا أنفسكم ، ولا يغرنكم الفساق المنتسبون إلى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينين لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم » (١٧٣:٣/٢) .

كانت هذه المعارضة الحادة وليدة انتصار ابن حزم لما يراه حقاً . ولو كان الأمر أمر مصلحة شخصية ، لكان في وسعه مهادنتهم ، وأن يتراأس عليهم لو سلك سبيلهم في التقليد . لكنه رفض هذا بإصرار إحتراماً لمعتقده . يقول ابن حزم :

« ما أردنا التروؤس على أمثالهم ، ولو أردنا ذلك لسلكنا سبيلهم في التقليد ، ولو فعلنا ذلك لما شقوا غبارنا في الرئاسة في الدنيا ، وهذا ما لا يقدرُونَ على إنكاره ، فما منهم أحد يدعى أنه يدانينا - ولله الحمد - في حفظ ما طلبوه ليأكلوا به الخبز الخبيث لا الطبيب . . فما هذه الرئاسة عندنا إلا نهاية الخساسة » (١٠٩:٣/٢)

لقد ساعد ابن حزم في المحافظة على استقلاله هذا ، وإشهار مشروعه ، والمنافحة عنه ، عدم احتياجه لأحد في أموره المعاشية ، إذ كان ينفق على نفسه ، وأسرته ، وبعض أصحابه ، من ربيع ضيعة تعود ملكيتها للأسرة . .

لم يعد ابن حزم - بعد إشهاره ليقينه ، وبناء مذهبته الظاهرية ، وتطبيقها في سائر المجالات - مشغولاً بغير الذب عنها في مجادلات عنيفة مع الخصوم . . الأمر الذي أزعج الحكام ، ومن يوالونهم من الفقهاء ، والعلماء ، فتألبوا عليه ، وتكالبوا ، وراحوا يقصونه عن معالكم - الواحد تلو الآخر - . يقول ابن بسام في الذخيرة نقلاً عن ابن حيان : « طفق الملوك يقصونه عن قريبهم ، ويسيرونه عن بلادهم ، إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره بترية بلده من بادية لبلة » . . وهو في ذلك غير مرتدع ، ولا راجع إلى ما أرادوا به . . (٧٨:٥)

أشهر ابن حزم يقينه ، وفق خطة ، دون فصولها ، فقال : « كتبنا كتابنا الموسوم بـ 'التقريب' ، وتكلمنا فيه عن كيفية الاستدلال جملة ، وأنواع البرهان . . . وخلصناها مما يظن أنه برهان وليس ببرهان . . فكان ذلك الكتاب أصلاً لمعرفة علامات الحق من الباطل ، وكتبنا أيضاً كتابنا الموسوم بـ 'الفصل' فبيننا فيه صواب ما اختلف الناس فيه من الملل والنحل بالبراهين التي أثبتنا جملها في التقريب . . ثم جمعنا في ديواننا هذا {الاحكام} ، وقصدنا فيه بيان الجمل في مراد الله - تعالى - منا فيما كلفناه من العبادات ، والحكم بين

الناس بالبراهين » (١٢:٦) .

لقد عمل ابن حزم نظرتة الظاهرية - في الواقع - في باقي مؤلفاته ، وفي كل منحي من مناحي المعرفة : كالديانات ، والفلسفة ، والأدب ، واللغة ، والتاريخ ، مما جعل فكره منظومة واحدة ..

أما خطته في مواجهة خصومه ، فقد تمثلت في تلك المناظرات ، والمجادلات العنيفة ، التي كان دائب التحفز لها ، وأخذت جزءا كبيرا من نشاطاته ، وكان فيها 'يصك معارضه صك الجندل، وينشق متلقيه انشاق الخردل، فينفّر عنه القلوب، ويوقع بها الندوب' . (٧٨:٥)

والآن، ما هو ذلك الحق الذي تبناه ابن حزم ؟ .. ما الظاهرية التي نافح عنها ؟ .. وكيف وصل إليها ؟ ..

إن الإجابة على هذا السؤال هي موضوع الفصل التالي من هذا البحث .. ولكن، لا بد قبل ذلك من الإشارة إلى الفارق الكبير بين ابن حزم ، ومن تقدموه أو لحقوه حتى بوقت كبير .. أعنى انتباهه إلى ضبط منهجيته بشكل واضح ، حيث أن هذا الأمر لم يحظ بعناية أصحاب النظرة العقلية ، كالمكلمين وغيرهم ، مما خلط هذه النظرة عندهم بما ليس منها .. أو أقصى عنها ما هو فيها، كما سنرى ..

ب- الطويق إلى اليقين

تميزت المنهجية النقدية عند ابن حزم «بنقد الأساس الابستمولوجي الذي قام عليه الحقل المعرفي البياني» ، (٥٥١:٧) بل .. والعرفاني والبرهاني 'أيضا .. ومن هنا يمكن وصفها بأنها ، «لحظة جديدة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية» ٥٤٨:٧ . وكان في وسع هذه المنهجية أن تنعطف بالفكر اليوناني والإسلامي معا نحو توجهات جديدة لو فهمت حق الفهم .. وأن تختزل زمنا كبيرا لنقل المستوى المعرفي الفلسفي إلى مشارف العصر الحاضر أو دونه بقليل .

ولإعادة تمثيل فكر ابن حزم ، وتتبع كيفية وصوله إليه ، لا بد من تجميع الأدوات التي شاد بها ابن حزم فكره ، ونشرها هنا وهناك ، ذلك : «أن أغلب ما يستعمله الفلاسفة من مناهج لا يظهر إلا إذا حللنا أقوالهم ونتائجهم » (١٢:٨) .

لهذا فإن علينا أن نفرز نصوص ابن حزم المتعلقة بالمنهج، ونحاول قراءتها، واستنتاجها، لبلورة منهجه ، وفكره الظاهري..

لقد مرت عملية البحث عن اليقين عند ابن حزم في مرحلتين :

أ- مرحلة سلبية قوامها تخليص العقل من الأوهام .. ومرحلة إيجابية قوامها الاستعمال الدقيق للمنهج..وفي وصف المرحلة الأولى يرى ابن حزم ما يلي:

أولاً: وجوب الاستقلال في طلب الحقيقة، وعدم التأثر بأي اعتبارات غير موضوعية.. ويعبر ابن حزم عن هذا بقوله : « إني لا أبالي فيما أعتقد حقاً بمخالفة من خالفته، ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض » (٣٥٥:١/٢)

وبالفعل، فإنه يمكن اعتبار موقفه الظاهري موقفاً متفرداً، حقق به استقلالية واضحة، مخالفاً بذلك أبرز المشتغلين في الفلسفة ، والشريعة ، من الفلاسفة ، والمتكلمين ، والفقهاء ..

ثانياً : وجوب البعد عن الهوى، ومراقبة النفس بتفتيش أخلاقها وطباعها ، وقدمها لتستقيم للحق ، نابتة الهوى والتقليد .. ويعبر عن هذا الشرط بقوله :

« لا يدرك الأشياء على حقائقها إلا من جرد نفسه من الأهواء كلها .. وفتش أخلاق نفسه تفتيشاً لا يترك فيه من الهوى والتقليد شيئاً البتة » (٣١٩:٤/٢) .

وبالفعل ، فقد طبق هذا الشرط، محاولاً التجرد من عيوبه، بالرياضة والمطالعة، يقول :
« كانت في عيوب فلم أزل بالرياضة وإطلاعي .. أعاني مداواتها حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك .. فعنها كلف في الرضى وإفراط في الغضب .. ودعاية غالبية .. ومعجب شديد .. ومحبة في بعد الصيت والغلبة .. والآنفة .. ومنها عيبان سترهما الله علي ، وأعان على مقاومتهما .. وحقد مفرط » (٣٥٤:١/٢) .

ثالثاً : وجوب رفض التقليد ، وعدم الاغترار بالأشخاص وشهرتهم ، والتوجه بحسب- نحو الحق مهما يكن أمره وأمر من يتبناه ، يقول : « نحن في ميدان النظر، وحمل الأقوال على السير ، بالبراهين ، فسنزيف الباطل ، والدعوى التي لا دليل عليها ، حيثما كانت ، وببدي من كانت ، ويلوح الحق ثابتاً ، حيثما كان ، وببدي من كان » (١٧٥:١/٩) .

ومن هنا حارب ابن حزم التقليد والمقلدين ، مبيناً أنه « لا يحل لأحد أن يقلد أحداً لاحقاً ولا ميثاً ، وعلى كل الاجتهاد حسب طاقته » (٦٦:١/١٠) وإن « المجتهد المخطئ أفضل عند الله من المقلد المصيب » (٦٩:١/١٠) .

وأبداً : الالتزام بالموضوعية في معالجة الآراء والدعوى، وتطبيقاً لذلك فإنه يوصي قارئه بقوله : « أريد أن تنظر في كلامي بعين سليمة من الإعراض ومن الاستحسان معا ، وبنفس بريئة من النفار والسكون معا ، لا كما ينظر المرء بما لم يسمعه قط ، فيسبق إليه منه قبول يسهل عليه الباطل أو نفار يوعر عليه الحق . فمن هذين السعيين تاه أكثر الناس وفارقوا الحق » (١٩٨:٣/٢) .

خامساً : الأمانة في عرض الآراء والأقوال ، وعدم استثناء رأي من المعالجة ، مهما كان شأنه ، واللجوء إلى النصوص ذاتها بدون تحريف ، ذلك :

« أن تقويل القائل - كافرأ كان أو مبتدعاً أو مخطئاً - ما لم يقله نصاً ، كذب عليه » (٣٣:٥/٩) .

وقد طبق ابن حزم هذه الأمانة تحت كل الظروف ، حتى فيما جوب به من اعتراضات بلغت حد الشنائم ، يقول في هذا الصدد : « نحن نورد ألفاظهم ، على ركاكتها وغثائتها ، لئلا يظنوا بجهلهم أنها أوردت لمصلحة قد نسخت حقها ولم توف مرتبتها ، ونبين - بعون الله - عظيم ما فيها من الفساد والهجنة » (٧٣:٣/٢) .

ب- أما في الجانب الإيجابي فإن الانسان - في نظر ابن حزم - يستطيع أن يدرك الحقيقة بشرط أن يتبع المنهج الصحيح في هذا الطلب، يقول : « الذي يعتقد أهل التحقيق ، الطالبون معرفة الأمور على ماهي عليه ، فهو أن يبحثوا فيما يطلبون معرفته عن كل حجة احتج بها أهل فرقة في ذلك الباب . فإذا تقصَّوها ، ولم يبقوا منها شيئاً ، تأملوها كلها حجة حجة ، فميزوها ، الشغبي منها والإقناعي ، فاطرحوها ، وفتشوا البراهين على حسب المقدمات التي بيناها في كتابنا الموسوم بالتقريب ... وفي كتابنا هذا [الفصل] وفي كتابنا الموسوم بالإحكام في أصول الأحكام » (٢٦٣ : ٥ / ٩) .

وما يصفه ابن حزم في 'التقريب' و'الفصل' و'الإحكام' ككل ، هو الطريق البرهاني، وهذا الطريق ضروري ، إذ : « كل أحد يحسن عنده رأي نفسه ، فلا سبيل إلى الزامه الإقرار بشيء منها أصلاً إلا أن يوجب برهان صحة شيء منها فيلزمه حينئذ ، وإلا فليس بعضها أولى بالتصديق من بعض ، ولا سبيل إلى أن تكون كلها حقاً فتصدق بجميعها ،

ونفيها كلها ، والشك فيها ممكن ، حتى يقوم البرهان على صحة الصحيح منها» (٣٢١:٤/٢) .

ويختصر ابن حزم طريقته البرهانية بقوله : « من ميّز في المبدأ ما يعرف بأول التمييز والحواس ، ثم ميّز ما هو البرهان مما ليس برهاناً ، ثم لم يقبل إلا ما كان برهاناً راجعاً رجوعاً صحيحاً ضرورياً إلى ما أدرك بالحواس أو ببديهية التمييز وضرورته ، في كل مطلوب يطلبه فإن شارع الحق يلوح له واضحا ممتازا من كل باطل دون إشكال » (٢٦٣:٥/٩) .

لكن هذه الطريقة البرهانية شاقة وصعبة ، وتتطلب مقاومة الميول ، والاهواء ، والكسل ، وشحن الحواس ، والعقل ، للقيام بملاحظة دقيقة ، ويؤكد ابن حزم : « أن كثيرا من الناس يغيّبون عن اعتقاد ما شهدت له الحواس ، وينكرون أوائل العقول ، ويكابرون الضرورات ، إما لأنهم كسلوا عن طلب البراهين فقطعوا بظنونهم ، وإما لأنهم زلوا عن طريق البرهان وظنوا أنهم عليه ، وإما لأنهم ألفوا ما مالت إليه أهواؤهم ، لإلفهم شيئا ، ونفارهم عن آخر » (٢٦٥ :٥/٩) .

إن هذا الموقف المنهجي لا يتحقق ، إلا لمن « صفا عقله ونفسه من الشواغل ... واستوت عنده جميع الأقوال ، ثم نظر فيها طالبا لما شهدت بها البراهين » (٢٥١:٥/٩) .

المعرفة عند ابن حزم إذاً برهانية . والبراهين تعود إلى مقدمات موثوقة . والمقدمات الموثوقة سنرى أنّ لها مناهج تثبت صحتها ، سواء أكانت مقدمات أوائل (عقلية وحسية) أم مقدمات تجريبية أم مقدمات إخبارية (شفوية ونصية) ، ولها جميعا أصول تستند إليها .. مما يرجع منهج ابن حزم للحس والعقل معا .. ويؤكد ذلك بقوله :

« نحن إنما نناظر الناس حتى نردهم إلى موجب العقل أو الحس أو نلزمهم أن يخرجوا عن رتب العقل ومكابرة الحس . فإذا خرجوا إلى ما ذكرنا فقد كفونا التعب ، ولزمنا الإعراض عنهم ، وتركهم يتمنون الأضاليل » (١٩٩:٤/٢) .

ويطبق ابن حزم منهجه - كطالب حق لليقين - في إبطال موقف الشك ، ليكشف عن تناقضه الذاتي ، فيخاطب أصحاب هذا الموقف بقوله :

« أشككم موجود صحيح منكم ، أم غير صحيح ولا موجود؟ فإن قالوا: هو موجود صحيح منا أثبتوا أيضا حقيقة ما ، وإن قالوا هو غير موجود ، نفوا الشك وأبطلوه . وفي إبطال الشك إثبات الحقائق أو القطع على إبطالها » (٤٤:١/٩) .

كما يطبقه في الرد على مبطلتي الحقائق، (٤٤:١/٩) والقائلين بتكافؤ الأدلة* (٢٥٤:٥/٩) ، والدعاوى الاعتقادية التي ترى الذوق والمشاهدة طريقا يوصل إلى الحقائق.. ودعوى القائلين بأن الطريق برهاني تحديدا ، ولكنهم - على ما يرى ابن حزم - لا يميزون البرهان مما ليس برهانا .

واضح مما سبق أن ابن حزم فيلسوف آمن بالعقل غير المنفصل عن الحس ، واستند إليه في أحكامه ، واعتبره أداة قادرة على بلوغ اليقين والإصلاح . وهو يؤكد هذه المسألة بقوله : « إلى العقل نرجع في معرفة صحة الديانة وصحة العمل الموصولين إلى فوز الآخرة والسلامة الأبدية. وبه نعرف حقيقة العلم ، ونخرج من ظلمة الجهل . ونصلح تدبير المعاش ، والعالم ، والجسد » (٣١٧:٤/٢) .

لقد أخضع ابن حزم كل حقول المعرفة ، بما فيها الدينية ، للعقل . ومن هنا اهتم ببيان أصول العقلانية الجديرة بالاعتماد ، والتي تستند إلى المقدمات الموثوقة التي تبني منها الاستدلالات الحقة . فما هي هذه الأصول؟!...